

حُثُورُ التَّعَامُلِ مَعَ خَيْرِ الْمُسْلِمِينَ

وقفات وتأملات

الحمد لله، والصلاة على جميع الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

فلا شك أن الإسلام في أوروبا، وفي بلاد الغرب عامة، قد صار حقيقة وجودية، لا صورة وهمية خيالية. وليس بالإمكان إعادة عقارب الساعة إلى الوراء، والحديث مرة أخرى عن أحلام العودة، وأحكام الإقامة والتجنس. فلقد **"قضى الأمر الذي فيه تستفتيان"** سورة يوسف. وكان ما كان، وانطلقت سفينة الرحمن! **"بسم الله مجراها ومرساها، إن ربي لغفور رحيم"**. سورة هود. وبقي علينا الآن أن نتحدث فيما ينبني عليه عمل، ونتفاءل بالمستقبل؛ ذاكرين قول الله الحكيم **"تلك أمة قد خلت لها ما كسبت، ولكم ما كسبتم"** سورة البقرة. أي بعبارات أخرى: ينبغي لنا الآن، أن نتعامل مع الموجود، لا مع المفقود، ومع الوقائع، لا مع الفرضيات والأوهام. وإليك البيان - والله المستعان:-

إن أوروبا - حسب بعض المصادر - يبلغ عدد سكانها حوالي ستمائة وخمسين مليون نسمة. المسلمون المواطنون منهم حوالي خمسة وثلاثين مليوناً - باستثناء تركيا طبعاً. وإذا، لم يعد الملف الإسلامي، أو الوجود الإسلامي هاهنا مرتبطاً بهجرة العمال، أو الطلاب، أو اللاجئين، كما كان الشأن في السابق. ولم يعد التدين بالإسلام حالة فردية انعزالية، تخص شخصاً بذاته، أو جنساً بعينه؛ بل أضحت - كما يقول علماء الاجتماع - ظاهرة اجتماعية، وعمالاً واسعاً ممتداً، له مؤسساته ومرجعياته، وتحدياته وآفاقه..! وليس من المبالغة القول بأنه لا يكاد يمر يوم أو أسبوع، دون أن ينشر في أوروبا مقال صحفي أو حديث تلفزيوني عن الإسلام والمسلمين، سلماً أو إيجاباً؛ بل إن بعض المجلات والدوريات - هداها الله - خصصت أعداداً متلاحقة عن الإسلام والمسلمين، بصورة استفزازية أحياناً .

وباختصار، لقد بلغ هذا الدين، أو كاد يبلغ ما بلغ الليل والنهار! - كما نطق الحديث الشريف- ولم يبق بيت مدر ولا وبر إلا دخلته كلمة الإسلام! وخبر الإسلام!.

ولا شك - أيها السادة- أن أسباب الاهتمام الغربي بالإسلام كثيرة ومعقدة، ولا يتسع المجال لذكرها. والذي يعنينا منها ههنا - على وجه الخصوص - هو قلق الإنسان الغربي من مستقبل العلاقة بينه وبين المسلمين في وطنه، وربما في سفره وسياحته أيضاً! إنه - أي الإنسان الغربي- بعبارات محددة، يريد أن يعرف على وجه اليقين: هل المسلمون بالفعل، لا بالقول، قادرين على الاندماج في المجتمع الغربي أم لا؟ أم أنهم ناس طائفيون، منغلَقون،

متعصبون؟ هل المسلمون مع تحالف الحضارات والثقافات، أم مع تصادمها؟ ماذا يقول المسلمون في الغرب - تحديداً - عن اختطاف الطائرات، وتفجير الحافلات، وترويج المخدرات، واغتيال السياح، واستباحة الأموال، وما أشبه ذلك من شبهات، التصقت بالإسلام وأهله - ظلماً - في المخيلة الغربية؟

إن الإنسان الغربي - كما علمتنا التجارب - يريد أن يسمع الجواب الشافي من المصادر الأصلية، والمراجع الدينية، وليس من مراكز الدراسات والبحوث، أو من حفلات المجاملات، وصالونات كؤوس الشاي الأخضر! وهذا ما صرحوا به لنا في مناسبات مختلفة، وشجعناهم عليه. ولينا جميعاً سلطنا هذا المسلك، ورجعنا إلى أهل الاختصاص في كل شيء، بدلاً من تعميم الأحكام، وإطلاق التهم، وإضمار الحقد والشنآن، فأهل مكة أدرى بشعابها - كما يقول المثل - وأعرف الناس بالشيء هم أهله.

نعم، أعرف الناس بالإسلام - قطعاً - هم علماء الإسلام، وأعرف الناس باليهودية والمسيحية هم الأحرار والرهبان. وقس على ذلك كل الملل والنحل، والمذاهب والمشارب.

وأقول لنفسي هنا - قبل أن يقول لي غيري - : إن المسلمين أيضاً في هذه الديار يقلقون، ويتخوفون، ويحزنون، ويألمون كما يألم غيرهم، وإن اختلفت المخاوف والآلام والأحزان، كما قال تعالى: **"إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون..."** سورة النساء. أفلا يحق لهذا الإنسان المسلم، المواطن، الداعي إلى السلم، أن يبوح بهومه، ومخاوفه، وأحزانه، ويطمئن على مستقبل دينه ودينه في هذه البلاد؟ ألا يتطلع هذا المسلم إلى سماع كلمة حاسمة وقوية من رجال الدين، والثقافة، والسياسة، والإعلام، تندد بالعنصرية، والتهميش، و**"الإسلاموفوبيا"** - الخوف المرضي من الإسلام - وما أشبه ذلك من معوقات التعايش والحوار؟ إلى متى هذا القصف الإعلامي اليومي، الذي ينزل على الأقليات المسلمة، بلا عدل ولا رحمة؟ ولا تمييز ولا حكمة؟

وينبغي لنا - نحن المسلمين - أن نستعين بالصبر والصلاة - كما أمر الله - إزاء هذه الابتلاءات السننية، التي لا مفر منها، ونتوجه بالخطاب المباشر إلى الشعوب الغربية، بإمكانياتنا المتاحة، من أجل تبديد هذه المخاوف، وبيان سماحة الإسلام الحقيقية، في التعامل مع الموافق والمخالف، والقريب والبعيد، والمحسن والمسيء، في إطار النصوص المعصومة، والمصادر المعتمدة، بعيداً عن المدهانات الفارغة، والمغازلات الكاذبة، التي لا تسمن ولا تغني من جوع! فنحن - بحمد الله - متدينون لا نقبل بالمكيافيلية! وسُنِّيُونَ، لا نعمل بالتقية!

وقد يحتد الخلاف بيننا وبين مُحاورنا أحياناً، فنضطر إلى شيء من المجادلة العلمية، والمناقشة الفكرية، على قاعدة: **"تعالوا إلى كلمة سواء"** فليكن ذلك؛ ولكن في إطار الأدب،

وحدود اللياقة والذوق، أي بالتّي هي أحسن، كما أمر الله تعالى: **وجادلهم بالتّي هي أحسن** سورة النحل. **والجدال في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء** كما قال الفخر الرازي في التفسير 226. ج 17-18.

ويبدو - أيها الناس - أن فقه التعامل مع غير المسلمين، أو ما يسمى بفقه الهجرة، أو بفقه الأقليات، قد تسربت إليه أفكار مُنمّية، وأخرى متشددة، ومتناقضة أحياناً، بحيث يعسر على طالب العلم العادي، أن يفك خيوطها، ويكشف عَوْرَهَا، فضلاً عن عامة المسلمين - مع الأسف الشديد - الذين وقعوا في حيرة شديدة، لا يخرجهم منها - بإذن الله - إلا العلماء الراسخون، والأئمة الراشدون.

والحق، أن أصول التعامل، أو دستور التعامل مع غير المسلمين، واضح في القرآن والسنة، والمصادر الفقهية المعتمدة، ولا يحتاج إلى اجتهاد جديد، أو رأي جديد، إلا في بعض تطبيقاته، وجزئيات مسائله! وأما كلياته وأسسها، وقواعده ومقاصده؛ فهي قديمة قَدَمَ الدين نفسه، ويكفيها منها آيتان محكمتان من سورة الممتحنة، وهما: **"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم..."** فهل بعد بيان الله من بيان؟.

وهاتان الآيتان الكريمتان تعتبران من كليات الشريعة وقواعدها ومقاصدها ومحكماتها - كما يقول العلماء- وليس للمسلم أمام هذا البيان الإلهي إذاً، إلا التسليم والإذعان.

والعجب كل العجب - أيها الناس - ممن يمر بهذه الآية مرّاً خفيفاً، أو لا يلتفت إليها أصلاً، ثم يشغل نفسه وغيره بنصوص جزئية، أو أقوال فقهية، أو فتاوى متسرعة، أو خطب نارية، من هنا ومن هناك، اختلطت فيها أحكام السلم بأحكام الحرب، وأحكام التمكين بأحكام الاستضعاف، ولربما بُترت فيها آيات الولاء والبراء والجهاد والقتال من سياقاتها بترّاً، ولم يُحقّق في تنزيلها مناط عام ولا خاص! وليس هذا والله من نهج العلماء المتقدمين، والأئمة الراشدين! بل نهجهم - رحمهم الله - النظر في كليات القرآن، والتمسك بمحكماته - اللاتي هُنَّ أمُّ الكتاب- ثم جمع النصوص الجزئية الواردة في المسألة، أمراً ونهياً، حظراً أو إباحة، إطلافاً أو تقييداً، عموماً أو خصوصاً، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الجمع والتوفيق - قدر الاستطاعة- مع النظر في الحال والمال، والزمان والمكان، أو ما يسمى عند الأصوليين بتحقيق المناط، ثم الخروج في نهاية المطاف - بإذن الله تعالى - بفقه متزن، بعيد - إلى حد كبير - عن الشذوذ والاضطراب. وما التوفيق إلا من عند الله!

وليست العبرة - أيها الناس - دائماً بحشد الأخبار والروايات، واستظهارها في هذا الموضوع أو ذاك؛ بل العبرة بفهمها وهضمها، وتنزيلها علي منازلها الصحيحة. ولهذا قال

الإمام مالك، رحمه الله، لتلميذه - وقد كانا حريصين على كثرة الرواية-: "أقلنا من هذا الأمر وتفقه فيها".

ومن ثمّ، فإننا ننبه أبناءنا الشباب، وجميع الأحباب، إلى عدم تلقي مسائل الأحكام من كتب الرقائق والسّير، والوعظ والإرشاد، كمثل الكتاب الجليل "**حياة الصحابة**" للعلامة محمّد يوسف الكاندهلوي، أو ما أشبهه. فمثل هذه الكتب - إن حُقِّقَتْ رواياتها - وضُبطت ألفاظها، تصلح للوعظ والإرشاد، وتليين القلوب، وتهيئتها لقبول الخير، لا غير. أي: هي-
باصطلاح أهلها- موضوعة لعلم الفضائل، لا لعلم المسائل!

نعم - أيها السادة- هاتان الآيتان من سورة الممتحنة، أو الامتحان، كافيتان شافيتان في بحثنا هذا، لمن أراد العلم لله، و"**من طلب العلم لله، فالقليل يكفيه إن شاء الله**" كما قال الحافظ المغربي، ابن عبد البر، رحمه الله.

وهاتان الآيتان كلمات خفيفات مباركات، تضع النقط على الحروف في معاملة غير المسلمين، من كل الأديان، والملل، والنحل، أيا كانوا، وحيثما وجدوا. كما رجح إمام المفسرين، ابن جرير الطبري. أضواء البيان (ص 153 ج8)

وهما قسمان لا ثالث لهما.

القسم الأول: المسالمون، الذين لم يقاتلوا المسلمين فعلا أو تسبّيا، ولم يخرجوهم من ديارهم وأوطانهم تعسفا وظلما.

القسم الثاني: المحاربون، الذين قاتلوا المسلمين فعلا وتسبّيا، وأخرجوهم من ديارهم وأوطانهم ظلما وعدوانا. وهؤلاء لا يمكن عقلا وطبعا أن تُفرض عليهم صلة المسلمين، ومحبة المسلمين، "**هانتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم.....**" آل عمران. ولا معنى لبرهم وإحسانهم، في هذه الأجواء المتوترة، التي صنعوها هم بأيديهم، لا بأيدي المسلمين، الأمنين في ديارهم. فهم الذي قاتلوا، وأخرجوا، وأعانوا على الإخراج، وأوقدوا نار الحرب. ومع ذلك كله، يفتح الله تعالى الرحيم، باب الأمل في المستقبل، ويخاطب المؤمنين بقوله: "**عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ...**" الممتحنة.

الخلاصة: أن هذا الصنف من الناس، له دستور خاص، ومعاملة مناسبة، لا تخرج بأي حال عن إطار العدل. مع التأكيد على أن أحكام هذا القسم من المحاربين المعتدين، منوطة بولاية الأمور، الممكّن لهم في الأرض، أي هي من وظائف السلطان وحده-كما قال صاحب المغني، ابن قدامة- وليست موكّلة لأفراد الناس وعامتهم، لما في ذلك من المفساد، والجنايات، والأضرار التي لا تخفى.

والذي يعيننا في مقامنا هذا، هو القسم الأول من غير المسلمين المسالمين، وبالأخص، الغربيين، الذين قررنا - طواعية - أن نعيش بين ظهرانيهم، وفي ظل سلطانهم، فيما يسمى الآن بدار العهد والأمان، حسب الاصطلاح الفقهي المعروف.

ومن هؤلاء الذين نعيش معهم، بل ونحتك بهم يومياً: طبيب الأسرة، ومعلم المدرسة، ورجل الإدارة، وعمدة المدينة، ومدير الشركة، ومحامي الدفاع، ورجل الأمن، ورجل البيت، وزميل العمل، وأستاذ المختبر، ورجل الصحافة والإعلام... بل فيهم الوالد الملحد، والوالدة البوذية، والجدة الهندوسية، والزوجة الكتابية، وأمها، وأبوها، وجدها، وأعمامها... - بالنسبة للمسلمين الغربيين- فكيف نتعامل إذًا، مع هؤلاء الناس وأمثالهم؟ وكيف نكون على بينة من ربنا في ذلك، إذا شككنا شكًا، أو اعترض علينا معترض؟

الجواب -طبعًا- لا يخرج عن الآيتين السابقتين. ومن قال خلاف ذلك فقد وقع في التناقض المضحك! وأوقع غيره من المسلمين في الحرج العظيم. أحب أم كره، شعر أم لم يشعر.

لماذا نقول هذا؟ لأن عدداً غير قليل من شبابنا الخيرين هنا، اضطربت موازينهم، وتمزقت مشاعرهم، وتعطل إنتاجهم، وشلت حركتهم، من جرّاء ما يسمعون ويقرؤون من فتاوى إلكترونية، "مُوغلة في الإغراب، ولا محل لها من الإعراب"- على حد تعبير أحد العلماء- تحرم عليهم التعامل مع اليهود والنصارى والمشركين، بشكل قاطع، حاسم، لا نقاش فيه ولا تفصيل! فلا مدرسة، ولا تكوين، ولا رياضة، ولا صلة، ولا تحية، ولا تعزية، ولا ابتسام، ولا... مستدلين - مع الأسف - بقوله تعالى: "**وليجدوا فيكم غلظة**" التوبة. أي: خشونة وفظاظة، وبقوله تعالى: "**أشداء على الكفار رحماء بينهم**" الفتح. وذلك صحيح مليح، إذا كان مع المحاربين المعتدين، لا مع المسالمين، والمعاهدين - كما لا يخفى على من شمّ رائحة العلم - وإنما لتساءل- أيها السادة- كيف يكون الحال، لو تحول كل أبنائنا، أو جلّهم، في هذا المجتمع الصناعي المتمدن - الذي لا يقبل الضعيف - إلى باعة سواك، ومسك، وحبّة سوداء، وماء رقية، في المراكز الإسلامية، والأسواق الشعبية؟! أو انصرفوا جميعاً إلى التكايا والزوايا، وتركوا الجامعات، والمعاهد، والشركات، والصناعات، وغيرها من المرافق الحيوية الضرورية، التي لا تنهض أمة إلا بها؟ ولا يقوم دين إلا عليها؟ هل هناك يا جماعة! فتنة ومفسدة أعظم من هذه؟ أنبئوني بعلم، كيف نكون قدوة للناس، وشهداء على الناس، مع هذا الانعزال، والانغلاق، والانكماش؟

إن الشهادة على الناس- كما هو معلوم- تقتضي الحضور لا الغيبة، والمعاناة لا الاختفاء والعزلة، وإلا كانت شهادة زور. وشهادة الزور -عندنا في الإسلام- من السبع الموبقات.

وكما استطاع المسلمون في القرون الأولى المفضلة- أيها السادة- أن يتعايشوا في مكة والمدينة، وفي عواصم الإسلام وحواضره، ضمن دستور تعامل واضح، فعلى المسلمين في

الغرب أن يبرهنوا على الشيء ذاته، وفق ضوابط الإسلام، حتى يُعَبِّدُوا الطريق للأجيال القادمة، ولا يتركوها للتسيب والفوضى. ولا داعي للخوف، فإنه لا خوف - إن شاء الله - على من استمسك بالله، واعتصم بحبل الله، وقوى جهازه المناعي، في مجالس الإيمان والقرآن، مع عباد الرحمن. **"ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم"** آل عمران.

نعم، لا مخرج ولا فرج - أيها المسلمون - إلا في هاتين الآيتين المحكمتين، من سورة الممتحنة - كما أشار الشيخ عطية سالم، رحمه الله، في تفسير أضواء القرآن (ص154 ج8) وإلا حكمنا على مليار ونصف من المسلمين بالموت البطيء، والعزلة عن العالم الصناعي الكبير، الذي لا مفر من التعامل معه، أخذا وعطاء، بيعا وشراء، نظرا لتشابك المصالح، وتقارب المسافات في هذا الزمان، ناهيك عن المسلمين الغربيين، والأقليات المسلمة، المنتشرة في القارات الخمس، والتي لن تستوعبها دولة، أو دُولٌ مسلمة، مهما أصدرنا من فتاوى، وأطلقنا من شعارات.

إن الإسلام - أيها السادة- دين واقعي، لا مثالي خيالي، وإن الذي أنزله إلى الناس، هو الذي جعلهم مختلفين، ووضع لهم دستوراً ثابتاً يرجعون إليه عند التنازع والاختلاف. فلنعد إلى هذا الدستور في آية الممتحنة، ولنلق لها السمع مرة أخرى.

" لا ينهاكم الله عن... " أي أن الله تعالى لا يمنعنا أبداً من الإحسان إلى من أحسن إلينا، أو على الأقل، لم يحاربنا. قولاً واحداً، لا نسخ فيه. -كما قال عالم القرآن، محمد الأمين الشنقيطي- رحمه الله - ومن جادل في هذا، أو شكَّك، فأجبه بقول الإمام مالك رحمه الله لأحد المتنطعين: **"إني على بينة من ربي، وأنت شاكٌّ، فابحث لنفسك عن شاكٍّ مثلك"**.

ومن عجب- أيها السادة- أن التعبير جاء بلفظ **" لا ينهاكم الله... "** وكأنه سبحانه يشير بهذا التعبير إلى ما كان عالقا بالأذهان -ولا يزال لحد الآن - من أن المخالف في الدين لا يستحق شيئاً من البر والقسط. وكان مجرد الاختلاف في الدين يحرم الإنسان من حقه في الآدمية، والمعاملة الكريمة، فنفى الله عزوجل هذا النهي من جهته، قطعاً للشك، وإقامة للحجة. وحينئذ فلا معنى لنهي من نهى عن ذلك، جهلاً، أو استدراكاً على الله ورسوله، ولا طاعة له في ذلك أبداً. فإنما الطاعة في الدين لله ورسوله **"وما آتاكم الرسول....."** سورة الحشر.

ومعلوم - أيها السادة- أن أصحاب الطبيعة المتشددة، المتأثرة بالمحيط، أو بالوراثة، أو بالأراء المسبقة، لا تتسع صدورهم للإحسان إلى من خالفهم في المذهب الواحد، والرأي الواحد، ضمن الدين الواحد، والأمة الواحدة! فضلاً عن المخالف في الدين، السالك سبيل المشركين! ولربما تغيب عنهم الفروق بين الموالاتة المحرمة، والمعاملة الإنسانية، وبين الولاء القومي، والولاء الديني، وبين الحب الغريزي الفطري، والحب العقيدي الديني.

ومن أجل إزالة مثل هذا الالتباس، كتب الإمام القرافي المالكي كتابه العظيم "الفروق"، الذي لا يستغني عنه عالم، أو فقيه.

فلننظر ماذا يقول الإمام القرافي في تفسير معنى البر هنا. يقول - رحمه الله:-

"وأما ما أمر به من برهم.... فالرفقُ بضعيفهم، وسدُّ خَلَّةِ فقيرهم، وإطعامُ جائعهم، وإكساء عاريهم، ولين القول لهم على سبيل اللطف لهم والرحمة... واحتمال إذيتهم في الجوار،... والدعاء لهم بالهداية، وأن يُجعلوا من أهل السعادة،... وصون أموالهم وعيالهم، وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم.... فإن ذلك من مكارم الأخلاق". انتهى. الفروق ج 3ص15.

ومن هنا يتضح أن تصرفات المسلمين في هذه البلاد، بالإحسان إلى جيرانهم الغربيين، وعبادة مريضهم، وتعزيتهم في مصابهم، وتهنئتهم في زواجهم وولادتهم، ونجاحهم، والشفقة على أولادهم، والإهداء لهم، وتحيتهم بتحية عادتهم، وإغاثة ملهوفهم، وتعليم جاهلهم، والصبر على إذيتهم، والدعاء لهم بسعادة الدارين، ومساعدتهم في أيام الكوارث والنكبات، كالتبرع بالدم، والأعضاء، والكساء، والدواء، والغذاء، وغير ذلك. كل ذلك ومثله مما لا يتعارض مع أحكام وآداب الإسلام، يدخل - إن شاء الله - في باب البر والإحسان. وصاحبه مأجور غير مأزور. على أن يكون ذلك تدنيًا، وقربة إلى الله تعالى، وتأسيا بأخلاق المصطفى، صلى الله عليه وسلم، لا تزلفا ورياء، وطلبًا لجاههم ودنياهم.

ثم يأتي البند الثاني من هذا الدستور القرآني، وهو بند القسط والعدل، وهو دون البر والفضل. "ومن بر بالناس ووهب لهم الفضل، فلن يعجز. إن شاء الله - عن معاملتهم بالعدل!" - كما قال أحد الفقهاء.-

ومن العدل: أن نُعدّلَ نظرنا للغربيين، على اختلاف مللهم ونحلهم، ومذاهبهم ومشاربهم، وأن لا نجعل الجميع في كيس واحد، ومستوى واحد، فهم " ليسوا سواءً" كما قرر القرآن. وهذا ما رأيناه بالعيان، فمنهم الأوفياء الأمناء، حقًا. ومنهم أمة مقتصدة. أي غير حائدة عن الصواب، ومنهم المستهزئون الساخرون، ومنهم المنصفون، ومنهم القاسطون، ومنهم الرجال الأبطال، الذين انتصروا للمظلوم والمحروم، ودافعوا عن حقوق المسلمين، وناضلوا من أجلهم، وساعدوهم في الدين والدنيا... ومنهم... فلا يجوز التعامل معهم إذًا، بطريقة واحدة، وأسلوب واحد، بل كلُّ بِحَسَبِهِ.

ومن العدل: أن لا نُحمِّلهم أوزار قومهم، وجرائم بني جنسهم، سواء في الماضي أو الحاضر، فإن الله تعالى قد قرر قاعدة كلية، تبنتها كل الشرائع السماوية: " أن لا تزر وازرة وزر أخرى". سورة النجم.

وأشدد على هذا؛ لأن بعض المسلمين هنا يسيئون إلى جيرانهم الأوروبيين، بدعوى: أن أجدادهم استعمرونا، وسلبوا أموالنا، واستباحوا أرضنا وأرضنا! وهذه دعوى مردودة، وظلم لا يحبه الله.

ومن العدل: أن نفي بما أبرمناه معهم طواعية من عهود وعقود. ولا فرق عندنا في الإسلام بين خيانة مسلم وغير مسلم؛ بل قد تكون خيانة غير المسلم أقبح وأشنع، لما في ذلك من تشويه لصورة الإسلام والمسلمين، وصد عن سبيل الله! وقد لمست هذا بنفسى، واصطليت بناره، فإن أحد الإداريين الفرنسيين أغلظ لنا في القول، وأساء إلينا -على غير العادة- بلا سبب ظاهر؛ فبعثت إليه من يسأله عن السر، فقال- بصراحة-: تعرض لي اللصوص في بلاد العرب، وسطوا على مالي؛ فصرت أنفر من العرب، و...!

وليس من العدل ولا من العقل، أن ننسى إيجابيات الغربيين، ولا نذكر عنهم إلا الجوانب السلبية - وهي موجودة بلا شك - ويعترف بها عقلاؤهم وفلاسفتهم. لماذا لا نذكر مثلا، احترامهم للوقت، وانضباطهم في المواعيد، وحبهم للنظام، وهدوءهم في الكلام، وتفانيهم في الخدمة، وإتقانهم للصناعة، واستغلالهم للطاقات، وتشجيعهم للكفاءات، ودفاعهم عن الحريات، واتحادهم في النكبات؟ أليس هذا واقعا نراه ونلمسه في كل يوم؟ ألا نذكر من إيجابياتهم أيضا هذه المساعدات الاجتماعية التي تأتي المسلمين، وغير المسلمين - مثلا- وهم على الأرائك متكئون؟ لماذا لا نذكر التساوي في حق السكن، والت مدرس، والراتب، والبطالة، والتقاعد، والتداوي، والتقاضي؟ لماذا لا نذكر حق الحرية في الاجتماع، والتعبير، والسفر، والعبادة، والدراسة، ولقاء العلماء... فهل إخواننا الأقليات في كوبا، والصين، وغيرها، يتمتعون بحقوق أكثر من هذه؟ والجواب واضح ولا شك.

أما الشكاوى المتعلقة بموجة العنصرية، والتمييز، فهي كثيرة، وظاهرة، ومتكررة، باعتراف الغربيين ذاتهم، ولكنها أيضا- والحق يقال - موجة عالمية، لا يسلم منها العرب والمسلمون أنفسهم في بلدانهم، وشعوبهم، وقبائلهم، وعشائرهم "وظلم ذوي القربى أشد مضاضة" كما قال الشاعر طرفة.

وفي البلاد الغربية، يمكن رفع دعوى قضائية على من تعرض لك بسوء، أو أرادك بشر، وقد تنال حقلك بلا إشكال. وقد رأينا أمثلة واقعية، ومحسوسة، تثبت نزاهة القضاء، رغم بعض النقائص والأخطاء التي لا يخلو منها مكان.

ومن أجمل الحقوق عند الغربيين - وبهذا أختم - أنهم لا يمنعون أحدا من الرجوع إلى بلده، متى شاء، وكيف شاء. -إذا ضاق به الحال في دينه أو دنياه- ولا يحبسونه في بر ولا بحر ولا جو، إذا قرر الخروج من بلادهم، إلى أي بقعة في العالم، يجد فيها راحته ومتعته، حتى

وإن كان متجنّساً، أو مقيماً دائماً، بل وتصله فوق ذلك منحة تقاعده، وبطاقة تأمينه، ولا يسألون عنه بعد ذلك حياً أو ميتاً. فماذا نريد أكثر من هذا؟

وأخيراً فإن الأمثلة والنوازل في هذا الموضوع لا تكاد تنتهي، والرجوع إلى العلماء في ذلك هو العاصم من القواصم. ولعل في التعقيبات والمداخلات المنتظرة، ما يثري الموضوع، ويجلي بعض جوانبه وخفاياه.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك. والحمد لله رب العالمين.

الراجي دعواتكم: أحمد بن علي الهبطي (أبوخالد) فرنسا.